أسس التكوين المعرفي للكلمة المعجمية

دراسة في منهج تطبيق النظرية المعجمية المعاصرة على المعجم العربي

م . م . ميثم رشيد حميد

١ . الجانب النظري

١ . ١ . نظرية العقل والظاهرة العلمية:

أحسب أن فلسفة المعرفة المعاصرة قد وصلت إلى حقائق مدركة يمكن أن نفصل بها آليات عمل العقل الإنساني عن الظواهر المدركة عقلياً المسبَّبَة عنها، وبات بالإمكان أيضاً إدراك كل ظاهرة علمية بمراعاة أصول التفكير المجردة القائمة عليها، والمدخل المهم الذي يقود الى ذلك هو أن نفترض أن العقل أصل لوجود الظاهرة العلمية، وهو على أية حال سيصبح أداة للفهم أو على حد تعبير جومسكي: ((ينبغي أن تؤثر مبدأياً الاكتشافات المتعلقة بالدماغ على نظرية العقل))[١]، فيمكننا أن نلمس طرائق عمل العقل ببساطة وأن نضع له حدوداً، بعد أن كان شيئاً أثيراً يسكن وراء الطبيعة، لا تصل إليه إلا المباحث الميتافيزيقية.

لقد انتهت مرحلة فصل العقل عن الفكر، وما جاء بعدها تمثّل بمساواة العقل بأصول التفكير المجردة، ومن ثمَّ مساواة أصول التفكير بـ (النظام) على يد المدرسة البنيوية، ولم تقف مباحث العقل هنا، فشهدت طوراً آخر وقف على آليات عمل العقل، الأمر الذي نتج عنه شيئاً مهماً جعلت فيه البنى العقلية المجردة تحمل (مقاصد)، وعلاقة القصدية بالبنى العقلية المجردة . كما سنرى عند سيرل مثلاً . أصبحت تعبر عن مرحلة من مراحل اكتشاف العقل. إذن . وكمحصلة لهذه المراحل التاريخية . يمكننا أن نقول أنَّ فترة نهايات القرن العشرين كانت مرحلة من مراحل اكتشاف وتطور في نظرية العقل، أصبح فيها العقل أداةً للفهم.

وكان للظاهرة العلمية الحصة الأكبر في إعادة تكوين مباحث العقل، وكانت الاشتراطات المعرفية التي تتابع حركة الظاهرة، ذات قيمة أعلى من قيمة مباحث العقل في أحيانٍ كثيرة؛ فمثلاً كانت ظاهرة الحل الفلسفي لكل المشكلات العالقة معرفياً، ظاهرة متفشية ويركن إليها البحث المعرفي العلمي التجريبي نفسه. فالذي يتعرض لمباحث جومسكي، يجد أن هذه المباحث المتعلقة بالمعرفة اللغوية لا تريد أن تنظر إلى الحل الفلسفي منفصلاً عن الحل المعرفي، بل إن نظرية جومسكي وصلت الى الحد الذي رفضت فيه الاستكانة الى الحل الفلسفي، وربما ترسخت في قرارة نفسه أن لا شيء يصعب على الفهم مادام العقل نفسه . بما ينجزه . أداة للفهم.

لم تكن الطريقة التي ذهب اليها جومسكي بعيدة عن طريقة المباحث التجريبية (الفلسفة التجريبية) التي كانت تفترض أنَّ نظام التفكير كامن في داخل الظاهرة العلمية، وأن لكل ظاهرة نظام تفكير خاص بها، والعقل في هذه الفلسفة يمكن أن يسمى نظاماً أو قانوناً، وجومسكي يعتبر أحد البارعين في توظيف التجريب الفلسفي في بناء اللغة، وإن كان هذا التوظيف قد شكل بدايات نظريته وعلى نحو محدود. ومن جهة أخرى كانت الظاهرة اللغوية في فلسفة جومسكي تنحى شيئاً فشيئاً منحى عقلياً، وعلى الرغم من أن هذه الخطوة باتجاه العقل كانت تتجاهل خواص الظاهرة اللغوية ظاهراً، وتستند إلى قاعدة العقل (التي تخزن مجموعة محدودة من القواعد اللغوية، تنتج عنها مجموعة لا متناهية من الجمل اللغوية)، فعلى الرغم من ذلك فقد بقيت نظرية جومسكي في كلٍ من وجهتها التجريبية والعقلية تحاول أن تحافظ على خطها اللغوي، وأشارت من قريب إلى أن الظاهرة اللغوية لم تكن إلا ظاهرة لغوية (لا عقلية ولا معرفية)، واللغة هي الأخرى كان مناط قيمتها في نظرية جومسكي أن تكون ظاهرة لا تتقاسمها طرائق التعيين الفلسفي والمعرفي والاجتماعي وما إلى ذلك من مصادر النظر في اللغة أي كانت المحاولة جادة من قبل جومسكي في المحافظة على اللغة بمفهوم ثابت هو اللغة لا غير، وإبقاء اللغة ثابتة بمفهومها من أن تنال منها طرائق أدائها أو الفلسفات التي كانت باعثاً على النظر فيها، وكان أساس الاسترجاع أو التنبؤ بالظاهرة اللغوية يستند في هذه النظرية، على تقويم اللغة والنظر اليها، بصفة العقل العام التي تنسب الى كل من نظرية العقل ونظرية المعرفة، وهذه الصفة المنظِمة . بكسر الظاء . لعمل اللغة كانت مصدراً مهماً لتعميم كل ظاهرة لغوية، عالجتها نظرية جومسكي، على لغات العالم بأسره.

١ . ٢ . فلسفة المعرفة واللغة:

قبل أن نبدأ عملنا علينا أن نتساءل: ما الحاجة إلى دمج فلسفة المعرفة[٢] (epistemology) أو نظرية المعرفة التجريبية (theory of knowledge) مع درس من دروس علم اللغة؟ وما الذي يجعل اللغة بنظامها الداخلي المعقد، تتصاع طائعة لدرس عامله الأول الفلسفة ونهايته تصب في علم النفس؟ والأهم من ذلك أن نسأل: ما الذي حدث حتى غيّرت هذه العلوم من اتجاهاتها وتداخل بعضها في بعضها الآخر؟ ومهما توخينا الدقة في إجابة مثل هذه الأسئلة، فلن نصل بطريقة عابرة إلى شيء قاطع في تحديد أساس الحاجة إلى تداخل العلوم، وحتى إذا افترضنا أن تداخل فلسفة المعرفة بعلم من العلوم، هو يشبه ما يسمى عندنا في درسنا الأكاديمي قاعدة وضع

الظاهرة العلمية وإسنادها إلى أسس التفكير الطبيعية التي ولدت فيها، فإن هذه القاعدة بذاتها لا تمنحنا فهماً كافياً نستطيع من خلاله أن نجمع المسارات المتشعبة التي تتجه إليها العلوم المعاصرة، فضلاً عن جهلنا الكبير بطريقة استحصال الفائدة المتوخاة من هذه الثورة العلمية الكبرى، وأظن أن الوعي العربي المعاصر يتلمس الآن عذراً تقليدياً يبرهن فيه على أنه يفهم حركة العلوم فهماً كاملاً . كما يمكنني أن أفعل أنا الآن في هذه اللحظة ـ وسأفترض أنني أفهم ولكن الواقع أن حقيقة ما استطيع فعله، تأتي فقط في أنَّني أرى أن اختلاف توجيه مسائل المعرفة العامة وتطورها هو السبب وراء إعادة بناء المنهجيات العلمية وتداخلها غير المشروط مسبقاً، ولكي أبرهن على صحة هذا الفهم، ستقفز مخيلتي إلى أقرب نقطة إخفاق .كما أخفق في فهمي تماماً .واجهت العلوم الصرفة، وسأقول أنّ ما جرى كان سببه؛ أنّ هذه العلوم بشكلها التنظيمي المتطور لم تستطع أن تضع نهاية علمية ودقيقة للظواهر التي تدرسها، فيكون سبب تداخل العلوم وافتقارها الى أصول نظرية عامة من وجهة نظري، هي المشاركة العامة في فهم الظاهرة الإنسانية .تحديداً في مجال بحثنا .وأن عدم بلوغ نهايات علمية محددة لهذه الظاهرة، هو من خلق قاسماً مشتركاً بين العلوم، وهو قاسم من السهل أن نفترضه مادمنا نقف في نهايات العالم، وبكلمة أخرى: يمكنني أن أقول أنّ عجزنا عن مراقبة ما يجري بدقة في هذه الظاهرة العلمية الجديدة يعود إلى أننا نرى أن السؤال المعرفي المهم الذي يجب أن نسأله عن هذه الظاهرة هو سؤال الكيفية التي يتم بها تعامد العلوم، والحاجة الى تعامدها، وهو سؤال لم يعد مهما أصلاً، وذلك ما قررته حقوق الحقول المعرفية ومناهجها المفتوحة والمتداخلة بتفريعات لا نهائية، فقد كان من المفترض أن تحافظ على مسيرة موحدة ومغلقة فيما إذا كنا نفترض أن بحث الظاهرة يولد مع الحاجة الى معرفتها، وهي تظهر فقط إذا امتلكنا الأداة الصحيحة في تحليلها. فكل هذا لم يعد لازماً وعلينا الآن أن نعيد النظر أيضاً بظواهرنا اللغوية ونتخلى عن فرضية الحقل العلمي بذاته ولذاته. وهذا ما حاولت العمل عليه في هذه الورقة البحثية الصغيرة.

١ . ٣ . المكون العرفي والكلمة :

ستتبادر إلى ذهن القارئ أسئلة عن ماهية المكون المعرفي؛ كيف نعرِّفه علمياً؟ وما الذي يربطه بالكلمة؟ وكيف نصنف إضافة التكوين المعرفي إلى الكلمة على أنها إضافة بين علمين منفصلين؟ وما مقدار احتمال أن تكون الإضافة بين المفردتين (معرفة وكلمة) إضافة بين صفتين متعادلتين في احتوائهما على المقدار الدلالي نفسه؟ ومع متابعة الأسئلة نصل الى السؤال الأخطر والأهم وهو : هل هناك فرق جوهري بين تمثيل المعرفة بالكلمة، وبين تمثيل الكلمة بالمعرفة؟ وهل الدال اللغوي مؤسس على التمثيل الأول أو التمثيل الثاني؟ وهل توصل البحث اللغوي فعلاً الى مرحلة التمييز بينهما؟ كل هذه الأسئلة سيبدو وجودها مهماً في ثنايا البحث ولكنها ستبقى عالقة من دون أجوبة شافية، وحسبنا أن نتلمس أن المنهج العلمي المعاصر لا يتخطى أسئلة البداية تحت أي ذريعة من الذرائع.

إن محيط هذه الأسئلة الخارجي يحتم علينا أن نكافئ العمل اللغوي بنظريات المعرفة، من حيث الشكل والوظيفة والأداة التي يعمل عليها كل من الحقل المعرفي والحقل اللغوي. ونصر على المكافأة لأن ما نعمل عليه هو مبدأ التكافؤ وتبادل البيانات فما يعجز عنه الحقل اللغوي ربما يكشفه الحقل المعرفي والعكس صحيح، وهذه المكافأة ضرورية من جهة ثانية في كونها الأداة الوحيدة التي نستطيع من خلالها إحراز تقدم متبادل بين الحقلين، ومن ثم يصبح من السهولة بمكان أن نقبل ظهور علم اللغة المعرفي أو الإدراكي نتيجة فحسب. وذلك نتيجة للخطوات المتكافئة والمحسوبة بدقة بين الحقلين.

١ . ٤ حقلا نظرية المعرفة:

سنبدأ من نظرية المعرفة، وهي علم قائم بذاته في المنظور الفلسفي المعاصر، يتعامده حقلان معرفيان أساسيان يعرفان كلاهما بنظرية المعرفة، الأول منهما هو الحقل الفلسفي الـ (epistemology) وهو كما بيَّنا يهتم بشكل أو بآخر بعلم صناعة المعرفة ونقدها وأصول التفكير التي تقود اليها، ولم يوضع له رديف في اللغة العربية حتى وقتنا هذا. والحقل الثاني هو نظرية المعرفة (theory of knowledge) وهو يعنى بالشكل التطبيقي والمبادئ التجريبية الميدانية لنظام المعرفة الإنسانية، ولو قارنا بين الحقلين سنجد أن الأول هو البنية التحتية للأخير[٣]، وكل منهما

يعمل في منطقة يستطيع من خلالها أن يكمل عمل الآخر الذي لا يبعد عنه كثيراً. وتقارب أو تعامد هذين الحقلين يتركان المجال واسعاً لتخيل مدى دقة عمل المعرفة ومدى استحقاقها في أن تتصدر قائمة الحقول الإنسانية جميعها من دون استثناء.

١ . ٥ نظرية المعرفة والظاهرة اللغوية:

أمام هذه الدقة المعرفية نكون ملزمين أن نبدأ مع الظاهرة اللغوية من منطقة الصفر، من المنطقة التي نميزها بالتصنيف القديم المعروف بالتصنيف بين الجنس والنوع، فنفترض أننا نكون مجبرين على التعامل مع اللغة بنظامين، أحدهما يقع تحت تصنيف عام وهو ما نطلق عليه علم اللغة، وبياناته تنطبق على جميع لغات العالم من دون استثناء، وهذا يعني أن مستوى جنس اللغة هو مستوى عام يمكن الوصول اليه في ظواهر اللغة بأدوات عامة تحددها النظرية اللغوية العامة. أما النظام الآخر الذي تعمل عليه اللغة، فهو يحمل أدوات نظرية خاصة جداً وضيقة، وتتناسب فقط مع ظواهر اللغة التي يدرسها فحسب، وبمعنى آخر يمكننا أن نقول أن كل لغة من اللغات الإنسانية صانعة لأدواتها النظرية، بالشكل الذي تتلاءم فيه هذه الأدوات مع خواصها وظواهرها المطوعة أصلاً لقبول هذه الأدوات. أما الفارق بين النظرية اللغوية ونظرية الخواص الذاتية للغة، فيتمثل في أن النظرية اللغوية هي المكان المناسب الذي يضمن تداخل النظام الفلسفي للمعرفة مع اللغة، بينما القاعدة الخاصة للّغات، فحسبها أن تستجيب بقواعدها لبعض الظواهر المعرفية التي يكون المتكلم بأمس الحاجة لصرف هذه القواعد عن ظواهر العقل التي يستعملها بشكل لا شعوري.

١ . ٦ . الآراء التاريخية لظهور المعرفة اللغوية.

مع وصول النظرية اللغوية الى المستوى العام يمكننا الآن أن نتلمس الحركة التاريخية الفعلية لتأثير الميدان المعرفي في اللغة من جهة، ومن جهة أخرى سنشهد عن قرب تسابق اللغة مع المعرفة في وضع حقائق عقلية تضاف الى فلسفة المعرفة. ويمكننا أيضاً أن نقول إنه بسبب النظرية اللغوية ذات الحدود العامة، تهافتت المدارس اللغوية وتنافست في إدخال المجال المعرفي الى اللغة، وكان الباعث الأساسي لهذا السباق هو تحقيق صياغة أفضل للنظرية اللغوية، وهكذا كانت هذه الحلقة مستديرة، فما تم تحقيقه في صياغة النظرية اللغوية كان يعود الفضل فيه الى المكاسب

المعرفية التي انتبهت إليها المدارس والمذاهب اللغوية. وهكذا نبدأ من جديد، والمحصلة التي تهمنا هنا هي أن المذاهب والمدارس اللغوية عملت على تعديل طرائق النظر في اللغة وتوجيهها بأسئلة معرفية كبرى، وكانت طبيعة هذه الأسئلة أنها صيغت لتعبر عن الحاجة الفعلية لدراسة اللغة، بما يتناسب ورؤية أصحاب هذه المدرسة أو المذهب للغة.

وأظن أننا وصلنا الى حقيقة تاريخية مهمة، فمّما سبق يمكننا أن نقول إن البحث المعرفي سار مرافقاً للبحث اللغوي ومتزامناً معه، حتى صار من البديهيات أن نقول أن لا وجود لبحث لغوي، إلا وتزامن معه بحث معرفي، وإن جذور هذا الترابط تمتد الى أيام الإغريق، وعلينا أن نذكّر أن ما نبحثه هنا من أصول الترابط المعرفية واللغوية بشكلها الحديث يبدأ حصراً مع ظهور مصطلح الـ epistemology على يد الفيلسوف James Frederick Ferrier.(1808-1864) [٤]، فما تلا هذا التاريخ يمكننا ان نعدّه البداية الحقيقية لظهور أصول التفكير الإنساني في الظواهر العلمية، وأيضاً يمكننا أن نصنف تاريخياً مرحلة علم اللغة قبل هذا التاريخ ومرحلته بعد هذا التاريخ، بمعنى أن الحاجة الى مراجعة علم اللغة لمباحثه اللغوية لم تظهر، إلا بعد هذا التاريخ بمدة وجيزة، وهي المدة التي عاصرها **Ferdinand de Saussure** (1857-1913) صاحب اللسانيات أو علم اللغة العام، فكانت هذه المرحلة منعطفاً حقيقياً في دراسة اللغة، ومرحلة تاريخية مهمة سجلت بدايات العمل المشترك بين ظواهر اللغة ومباحث الفلسفة المعرفية، ومن ثم نضجت هذه البدايات مطلع القرن العشرين لتشغل المساحة الأهم من فكر هذا القرن، وتتصدر قائمة أعمال اللغويين مطلع الألفية الثالثة، ففي عام ٢٠٠٣ صدر عن مطابع جامعة oxford كتاباً يحمل عنوان epistemology of language يضم مجموعة متميزة من البحوث العالمية لكبار علماء اللغة في العالم، وهو من تحرير Alex Barber [٥]، وهذا الكتاب يعالج كثيراً من الأسئلة التي تخللت انجازات القرن العشرين وبقيت عالقة لم يستطيع علم اللغة بمفرده الإجابة عنها.

١ . ٧ . القاعدة المعرفية اللغوية في حيز التنظير.

لقد بدأت المسيرة الفعلية لدمج نظام فلسفة المعرفة مع اللغة على يد الاتجاه التواصلي، الذي اهتم بالبحث السيميائي (الإشاري)، ووافقت نماذج مهمة من بحثه ميدان علم اللغة، واستطاع أن ينقل اللغة من وظيفتها التعبيرية الى وظيفتها التواصلية، ويمكننا أن نجمل طريقة تفكير أصحاب هذا الاتجاه، في أنهم وضعوا مبدأ التواصل موضع العلم المعرفي العام الذي يكون فيه . على وفق هذا

التصنيف . علم العلامة موضوعاً لهذا العلم المعرفي (التواصل)[٦]، وكل ما يتفرع من هذا العلم يرتبط بالضرورة بمقاصد التواصل، وحينما أثبتوا انّ وظيفة اللغة الأساسية هي التواصل، صارت اللغة هي المصدر الأول في بحوثهم للتعريف بعلم العلامة أو الإشارة، والأمر لم يقف عند هذا الحد بل وصل تلقائياً الى أن بحوث اللغة عندهم صارت مصدراً للدليل العلامي الذي لم ينفصل عن الدليل المعرفي (القصدي). وبناء على ذلك كانت المرحلة الأخيرة من تعريف اللغة عند هؤلاء تعترف . وإن بهمس بسيط . أن اللغة هي أساس ظهور الدليلين معاً(المعرفي القصدي، والدليل العلامي) بالتواصل، وسنأتي لاحقاً بمشيئة الله على التعريف بالدليل المعرفي القصدي.

ومن خلال الفلسفة التواصلية يمكننا أن نرى بدايات ظهور الحاجة الفعلية إلى وجود (علم المعرفة اللغوي)، وكان ذلك ينعكس في البراهين البسيطة والصغيرة التي حققها (التواصل) في اللغة، فأذكِّر على سبيل المثال، أن أصحاب التواصل يرفضون الاعتراف بوجود المعنى الحرفي لأي ملفوظ (المعنى الحرفي هنا ليس المعنى المعجمي بل هو معيار معرفي في نظرية التواصل) ويرفضون أيضاً بقاء الملفوظ المدرك في مستوى معناه الحرفي، ((وكل ملفوظ يدرك في مستوى معناه الحرفي، ينتهك أحد معايير التواصل، وإذا حدث أن ارتكب المتكلم هذه المخالفة، بأن جعل ملفوظه مدركاً بمعناه الحرفي، فإن هذه المخالفة تأتي فقط للإيحاء بالتقيد بالمعيار المطلوب على مستوى المعنى، أو أنه يفعل ذلك للتقيد بمعيار أهم)) [٧]، ومن زاوية أخرى قسموا الفعل (المعرفي/اللغوي) على قسمين، (أحدهما الفعل المضمر)، والآخر فعل (الافتراض المسبق)، وهذا التصنيف أصبح جدلية معرفية بذاتها بين دعاة السياقية ومنظري التواصلية، من نحو ما سيتبين. المهم أن الفعل المضمر هو اكتشاف تواصلي، يمكننا أن نقف عليه من خلال الفرق بين سؤال المعرفة التقليدي: ماذا يقول المتحدث؟ وسؤال المعرفة المشتق بسبب فعل مضمر: لماذا يقول المتحدث ما يقوله في السياق الحالي؟[٨]،ففي المفهوم التواصلي، يعدّ المضمر هو الكاشف والموجد لمثل هذه الأسئلة، وعلى ذلك فهذه الأسئلة لا علاقة لها بسؤال المعرفة المسبق والفوري والأولي، وليست مشتقة منه. إذن في العرف التواصلي كل ما هو مضمر يستطيع أن يخلق فعلاً معرفياً، وهذا لم يكن مألوفاً في السابق، ويبدو أن التواصليين هم أنفسهم من أطلق على فعل الافتراض المسبق، تسمية الفعل المعرفي الفوري، وكأنهم يلمحون إلى البداية المشوهة التي بدأ بها أصحاب النظرية السياقية حين بدأوا بتعريف اللغة من فعل معرفي ساذج لا يقدم للغة إلا أسئلة مألوفة متعلقة بماهية اللغة ووجودها وطرائق التعامل معها. وأما التواصليون فهم يرمون الى نقل مباحث اللغة الى منطقة استعمال اللغة

والغاية من استعمالها، والسبل الكفيلة بالتعامل معها. ويمكننا أن نقول أن هذه النقلة هي نقلة معرفية كبيرة قلبت ميزان المعرفة نفسها، وقد فعلت ذلك بثوابت لغوية.

ويمكنني أن أضرب كتاب (فان دايك: النص والسياق) مثلاً على الاتجاه السياقي يقول فيه: ((إن الأفعال الانجازية تقتضي بعض العناصر الذهنية أو تستلزم على الأقل شروطاً وأحوالاً ذهنية سابقة))[٩]، إن هذا التعريف للأفعال الإنجازية يضمر شيئين إذا عارضناه بالنتائج التواصلية: الشيء الأول هو أن طريق المعرفة المشروطة بقيم سابقة وليست المعرفة المجردة، هو الدليل الوحيد على صناعة اللغة، والشيء الثاني أن فعل القول لا يتم دون وجود حقائق معرفية مسبقة تفسر طبيعة مقاصد المتكلم في قوله.

إن شكل المعرفة اللغوية عند السياقيين، تشوبه اضطرابات عدة، فهو شكل وسط بين نظام العقل الذاتي المجرد الخالق لمخزون اللغة عند جومسكي، ونظام التواصل الذي يؤمن بمبدأ العقل الاجتماعي، وهو الذي يعتقد أن وجود اللغة يظهر فقط مرافقاً لوظائفها. ولا أدري إن كنت مصيباً، حين أقول: أن التوسط بين هذين العملاقين هو ضرب من الجنون، وسأكتفي بهذه الإشارة هنا وأعود الى التواصلية.

لقد نظرت التواصلية الى الفعل المعرفي على أنه فعل لغوي يتجسد في الفعل الإنساني المنجز، واستطاعت أن تحدد متطلبات عملها من خلال سؤال بسيط يضرب ويحدد وسائط كل هذه الخصائص اللغوية والمعرفية معاً، ولا نبالغ إذا قلنا، إن حصر منهج الدرس اللغوي والتعبير عنه بصيغة سؤال بسيط لا يتجاوز بضع كلمات، وتحويله الى طريق أومنهج آخر مختلف عما هو مألوف هو انجاز معرفي كبير، قد فصل تماماً بين طفولة العقل البشري، وحداثته ونضجه، وقد تركت التواصلية كثيراً من الأسئلة العالقة التي يصعب تحديد وضع إجابات مجزية عليها، فنحن مثلاً ـ أي المحيط العربي . لا نستطيع أن نجزم بصحة أو كذب ادعائنا حين نتساءل: هل نظم التواصل اللسانية تعمل من خلال الخرق في نظرية المعرفة التقليدية، أو أن هنالك عجزاً حقيقياً في مركز القيمة المعرفية؟.

وعلى أية حال، يمكننا القول إن التواصلية حاولت أن تنظر إلى المعرفة وتعيد بناءها من خلال اللغة، وهي مدرسة متفردة في اتجاهها وتخالف مدارس كثيرة حاولت أن تفعل العكس، بأن تعيد انتاج اللغة بناء على أسس عقلية أكبر، ومع أننا ليس من حقنا أن ننتصر لأحد، إلا أننا يمكن أن نقول أن ما قدمته التواصلية هو أساس الربط الحقيقي والفاعل لنظام اللغة مع نظم العقل، وكل ما نطرحه من أسئلة، يمكن أن نوجهها في مسارات متنوعة، بدءاً من الفرضيات المنطقية ووصولاً الى

أعلى تنويعات الدلالة التي تتحكم في أطوار الفهم الإنساني المتنقل بين المدارس الفلسفية واللغوية، وأعود للقول إن انفتاح هذه المسارات وحرية التنقل فيها من والى اللغة كانت وراءه المدرسة التواصلية.

٢ . الجزء التطبيقي

٢ . ١ . ماهية المكون المعرفي للكلمة:

عند هذه النقطة يكون من المناسب جداً أن نحدد مفهوم الكلمة من زوايا النظر المعرفية المتعددة، ونبدأ بسؤالنا السابق ما هو المكون المعرفي للكلمة؟ وهو ما بصطلح عليه في الدراسات المعاصرة بـ (cognitive component) ، ويستعمله فلاسفة المعرفة في مجال المعرفة التجريبية حصراً، أي ان هذا المصطلح حتى هذه الساعة لم يكتسب درجة المفهوم الـ (epistemology) للمعرفة، وهو مازال أداةً تجريبية يستعمل في ميدان تكوين واستقرار المفاهيم الأبستمولوجية، ونضرب مثلاً سريعاً عن هذه التجارب: نشر أحد المواقع العلمية في عام ٢٠٠٣ مقالاً عنوانه Verifying the Cognitive Model of Theory of Mind ، وقد اقتصر على ملخص جاء فيه، إنّ تحقيق النموذج الإدراكي لنظرية العقل، وعلى وفق معطيات نظرية (Tom) التي تعني: أن الشخص يمكنه أن ينسب حالة عقلية الى نفسه أو الى الآخرين، يتطلب منا أن نجمع تجريبياً بين مكونين؛ الأول هو المكون الإدراكي الحسي الاجتماعي social perceptional component والثاني هو المكون الإدراكي الاجتماعي social cognitive component .والأول يرتبط بنظام العواطف (النوايا، العاطفة، الرغبة، تعبيرات الوجه، نبرة الصوت، الوضع الجسماني)، ويتعلق الثاني بنظام الإدراك: وأقرب مثال له هو اللغة، ونحتاج في هذا المكون الى فهم طرق التمثيل والتفكير العقلية المرتبطة بعقول أفراد مجتمع التجربة، لكي نتمكن من فهم وقياس قدرتهم اللغوية[١٠]. ومن التجربة نستنتج أن المكون المعرفي هو أداة تجريبية يصلح للغة ولغيرها، وباعثه الأساسي هو الحصول على ثوابت المادة العقلية التي يدرسها، سواء بفعل المقارنة كما أثبتت التجربة في أعلاه، أم بفعل تأصيل الثوابت التي يصل إليها. وأذكّر في هذه المقدمة بأهمية أن يتنبه البحث اللغوي العربي على مثل هذه الأدوات التي تؤكد أن البحث اللغوي بمفرده لا يمكن أن يصل الى نتائج أبعد من أن يحبس اللغة التي يدرسها، ويغلقها على ذاتها.

إن افتراض أن هناك مكوناً معرفياً للكلمة، يجعلنا نتأمل ملياً في الفرق الكبير الذي سيحدثه في البحث اللغوي، بين أن نقول أن مصدر دراسة الكلمة . وهو ما تعارف عليه البحث اللساني المعاصر . مهمة موكلة إلى لسانيات الكلمة (word linguistics) ، أو نقول أن المكون المعرفي هو أساس توسع مباحث الكلمة وعلومها. إن وجود إجراء تصنيفي بين الحقلين صار من الأمور المهمة للغاية، وأقول مهمة لسبب بسيط فرضته العلوم اللغوية المتشعبة التي تتنافس اليوم على دراسة اللغة، بل إن المتتبع لهذه العلوم سيجد أن من الضروري أن نعمد الى المكون المعرفي للكلمة ونجعله في مضان الأصول العقلية التي يمكنها أن تجمع النتائج العلمية لبحوث الكلمة، ومن لغات العالم المختلفة. ويمكنني أن أرتب ما ظهر من علوم واتجاهات بحثية تعنى بدراسة الكلمة المعجمية على النحو الآتي:

١. Lexicography وهو علم تأليف المعاجم والقواميس
٢. Lexicology وهو علم يبحث في دراسة اشتقاق ومغزى الكلمات، وهو المسؤول عن تعلم ما يعالج مغزى ووضع الكلمات المعجمية، في المعجم.
٣. Lexis مهمته أن يصف خزن اللغة في معجمنا العقلي، وهو من العلوم المهمة في النظرية اللغوية، لأنه يعنى أصلاً باللغة المحتملة، وليس باللغة الممكنة كما يفعل جومسكي. وقد وصل في البحوث المعاصرة الى نتيجة مهمة للغاية، تقول أن القواعد تؤدي دوراً تكاملياً في دراسة الكلمة تحت هذا الحقل العلمي، تماماً كما قال جومسكي ، ولكنها خلافاً له فهي قواعد متراكمة وليست مولدة.
٤. Lexical metaphor وهو حقل يدرس الاستعارة المعجمية حصراً
٥. Lexical semantics وهو علم متخصص بدراسة معاني الكلمات المعجمية
٦. Lexical semiotics وهو علم دراسة العلامة في المعجم.

وهذه المجموعة هي ما استطعت التوصل إليه، ومن خلال مجموعة من المقالات التي نشرت على الشبكة الدولية، وتسهيلاً للقارئ يمكنه الرجوع إلى ثلاثة مواقع رئيسية للبحث عن هذه العلوم هي: موقع معجم websters الموسوعي، وموقع online medical dictionary ، وموقع الموسوعة العالمية wikipedia ، فضلاً عن محركات البحث المعروفة.

٢ . ٢ . عمل المكون المعرفي للكلمة المعجمية العربية:

قبل أن نبدأ في محيط الكلمة العربية، علينا أن نتنبه على أمر مهم، وهو أن نظرية جومسكي المعرفية في اللغة، هي النظرية الواقعية الوحيدة التي حازت على منزلة حقيقية لدى تطبيقها على جميع لغات العالم، وأضرب مثلاً على ذلك موضوعة معنى الكلمات المستنتجة من قاعدة نظريته التي تقول: الكفاءة اللغوية تتطلب معرفة المتكلم بلغته. وهي قاعدة ناهضها بعض العلماء، ولكن الراجح أن أغلبهم قد ناصروها، وأخص هنا منهم الذين وقفوا على حقيقة مفادها: ((أن من دون دراسة معاني الكلمات، لا يتمكن متكلمو اللغة العادية من تخطيط نطقهم النحوي بشكل صحيح))[١١]، ومن الجدير بالذكر أن الفيلسوف (سيرل) يتوافق مع هذا الرأي وهو يقول في كتابه (العقل): ((كيف على الفاعل أن يرتبط بهذه الكلمات لكي يستعملها ليحدد شروط إرضاء الفكرة بأكملها؟ الجواب التقليدي والجواب الذي يطرحه الفهم المشترك هو: كل كلمة تضع الشرط الذي تضعه بسبب معناها والفاعل يستعمل الكلمات التي يستعملها لأنه يعرف معنى كل كلمة بطريقة تساعده على إدخال شرط مرادف لشروط حقيقة الجملة بأكملها))[١٢]، وسيرل بهذا الموقف لا يدع مجالاً لمن ذهب إلى أن المتكلمين يعرفون قواعد ومبادئ اللغة لا شعورياً[١٣]، وهؤلاء يرفضون قاعدة جومسكي تماماً. وربما سنكتشف بعد ذلك أن أساس النظر الى المفردة المعجمية في كل العلوم التي ذكرناها في أعلاه، يعود الى هذه القاعدة المعرفية البسيطة، وربما أنّ ذلك هو ما سيكون فعلاً.

والآن هل علينا أن نضع فهم المتكلم لكلمات لغته في خانة القصدية؛ لكي نؤسس لبحث معرفي يعنى بمكونات الكلمة المعرفية؟. وقبل أن أجيب وما دمنا قريبين من (سيرل) علينا أن نفهم أن مبدأ القصدية هو أصل فكري معرفي شامل، وهو كما يقول سيرل يؤلف اليوم إحدى المشكلات الفلسفية الاثنتى عشرة التي بحثها في كتابه (العقل)[١٤]، والقصدية كما يعرِّفها هي ((تلك القدرة في العقل التي تمكن الحالات العقلية من الإشارة إلى، أو الكلام عن الأشياء والحالات الواقعية المغايرة عنها في العالم))[١٥] وأيضاً قبل أن أجيب علينا أن ننتبه إلى أن الكلمة ابتداء من هذه النقطة في البحث ستنتفي صفة الوسيلة عنها . أي الوسيلة الكلامية . وستتحول دون السيطرة عليها إلى جوهر محسوس فقط من أشكاله الدلالية، وأظن أن هذه مغامرة بذاتها وأكبر من أن تعالج في هذه الوريقات الصغيرة، ومع ذلك سأعمل بالممكن لأتجنب مخاطر الخوض في هذه القضية، وأبقى مجاوراً لمعجمنا العربي.

إن الظاهرة المعجمية بحاجة إلى أن نفهمها من الزاوية القصدية، في مناطق معينة، هذه المناطق ستحدد مجال انفتاح المعجم العربي على العلوم المعجمية العالمية. وقبل أن نتمكن من ذلك علينا أن نتثبت من القصدية اللغوية لا القصدية الفلسفية، وعملية التثبت هذه تحتاج الى وصل القصدية اللغوية بالقصدية الفلسفية، وأظن أن جومسكي قد اختصر هذه المسافة على البحث الألسني العام،

حين أنكر أن يكون للقصدية أي مكان في نظريته، ورفضه وإنكاره هذا صار إلى شيء معكوس تماماً لما أراده، الأمر الذي أدى إلى أن نكتشف أهمية القصدية في البحث اللساني من جومسكي نفسه، يقول جورجيس راي : أحد المشاركين في كتاب ابستمولوجيا اللغة: ((من الغريب بما فيه الكفاية أن يلتزم جومسكي . على الرغم من انكاره لوجود القصدية في نظريته . النموذج التمثيلي ويستخدم تعبيرات القصد كثيراً... ويخلص إلى أنه سواء قبلها أو رفضها جومسكي، فإن القصدية مهمة وواعدة لتقدم النموذج الحوسبي الجومسكي لمعالجة اللغة))[١٦].

إن مسألة الخلاف مع جومسكي لا يمكن حصرها هنا، ولكن باختصار يمكننا أن نقول: أن قواعد اللغة المعقدة التي يمتلكها متكلم اللغة، هي بنظر جومسكي قواعد يستطيع متكلم اللغة تفسيرها، بمعنى أن متكلم اللغة الذي يمتلك قواعد محدودة ويبني عليها نماذج غير محدودة من اللغة، على وعي تام بهذه القواعد المحدودة، ولكن عملية تمثيل هذه القواعد في أمثلة لغوية حية هي مصدر الخلاف مع جومسكي، فهذه العملية بنظر (راي) هي عملية قصدية وتتم بشكل أساسي بخاصية المعرفة، أي بالخاصية التمثيلية، وما لا يفهمه (راي) كما لا نفهمه نحن هو كيف تكون الخاصية التمثيلية غير قابلة للاختزال إلى العالم التجريبي عند جومسكي؟[١٧] وهذا يعني أن القواعد العقلية اللغوية هي المسؤلة عن خلق التمثيل الدلالي، دون الحاجة إلى الوسائل الاجتماعية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التمثيل الدلالي الذي يفهم من خلال التجربة سواء سميت عقلية أو سميت اجتماعية، هو عند جومسكي خاصية عقلية مجردة، ولا يستند إلى التراكم كما أشرنا سابقاً.

ولو نقلنا هذه المعادلة الصعبة إلى الكلمة المعجمية، فسنكون أمام مجموعة من الحقائق، يفترض أن تبحث بجد، وأن توضع لها حدود واضحة، فالتمثيل الدلالي مثلاً ظاهرة دخلت المجال التنظيري مؤخراً وعلى يد علم العلامة البصرية، واليوم هناك جمعيات عالمية متخصصة في تعلم القراءة والكتابة البصرية، وعمل هذه الجمعيات ينحصر تماماً في طرق التمثيل الدلالي[١٨]، ولو افترضنا أننا فهمنا التمثيل الدلالي بطرق معينة، فهل ستكون هذه الطرق كافية لفهم التمثيل القصدي؟. وهذه واحدة من الحقائق التي لا يمكن لهذا البحث أن يأتي على شيء منها، وإذا أضفنا اليها مشكلة القصدية فسنكون في مواجهة مشكلتين من الصعب على الدرس المعرفي أن يثبت الجدوى من بحثه دون التمكن منهما، وسنعمل على ذلك مستقبلاً بمشيئة الله. ولكن هنا سأكتفي بملاحظتين اثنتين فقط: أنّ المكون التمثيلي للكلمة مختلف عن أصوله المعرفية بين قصدية تجريبية تفهم تنوع واختلاف الكلمات في طرق التدليل نتيجة فعل التراكم الزمني للغة وهذا ما تتجه إليه بحوث الـ Lexis كما أشرنا، وقصدية تمثيلية عقلية ترى أن القدرة العقلية هي من يوّلد التمثيل الدلالي للكلمات وهذا الرأي

معروف لجومسكي. أما الملاحظة الثانية فتقتصر على القصدية التي اتجهت إلى العقل أيضاً . كما أراد لها ذلك جومسكي . فظهرت لدينا على يد (سيرل) قصدية جوهرية حقيقية وأصلية، وقصدية تمثيلية مشتقة منها.[١٩]

وبناء على ذلك علينا أن نتساءل الآن: كيف يمكننا التعرف على الكلمة المعجمية العربية بشكل المخطط القصدي العقلي؟ وإذا كانت الكلمة عبارة عن تمثيل عقلي لقصدية عقلية مشتقة؟، فهل تكفي هذه الفرضية لكي نجعل من الكلمة أو نعدّها تمثيلات لقيم قصدية أعلى؟ وما نوع العلاقات التي ستربط محيط التمثيل بالقدرة العقلية القصدية؟. ومن خلال هذه التساؤلات يمكنني أن أقول أن وظيفة التدليل في الكلمة هي جزء من النظام العقلي المعرفي (الأبستمولوجي)، وكل كلمة في المعجم هي دال عقلي ينقسم على نفسه إلى قصدية جوهرية ذات أصل عقلي، وقصدية مشتقة من هذا الأصل، ويمكنني أيضاً أن أعرِّف الكلمة في القصدية الرئيسة: بأنها اختزال لمجموعة من قواعد التدليل التي تظهر فيما بعد في تفسيرها مقاصد فرعية مشتقة وتابعة لهذا الأصل. بمعنى أن شكل القصدية الرئيسية في الكلمة المعجمية وظيفته الحصرية إنتاج القدرة على بناء القواعد التمثيلية العامة، فهو مخطط لحالة عقلية وظيفته أن يؤشر حالات واقعية من خلال القدرة على انجاز قواعد عامة.أما في القصدية الفرعية، فيمكننا أن نعرِّف الكلمة بأنها: الشكل الخارجي للعلاقة التمثيلية، أي أنها السطح الظاهر والمجسد من القصدية، وصورة العقل في الواقع الخارجي المغايرة لصورته الكامنة في القدرة العقلية. وأظن . وربما أنا مخطئ في ظني . أن رأي جومسكي لا يمكن أن يتحقق إلا بهذه الطريقة، وأن مجمل ما دار من تفصيلات في طرق التمثيل الدلالية في نظريته، جاء من نتائج قائمة على القصدية الثانية، وأهملت الأولى ولم يُبحث فيها إلا من المجال النظري فقط.

ونحن بدورنا سنركب الموجة العالمية، ونتأمل شكل العلاقة التمثيلية للكلمة المعجمية، أي القصدية الثانية، ويمكنني أن أبدأ بقولي أن المعنى القصدي في تشكيلة العلاقة التمثيلية للكلمة، غير معروف في كونه سابق للدلالات المتحققة للكلمة أم لاحق لها، هذه المسألة لا يمكن البت فيها، وتعيدنا إلى نقطة الخلاف الجوهرية بين أن تكون دلالات الكلمة ناتجة عن التراكم أم ناتجة عن التوليد. وهذا الأمر يجعلني مجبراً أن أبحث بجدية عن شكل العلاقات الدلالية التمثيلية بعيداً عن متطلبات العمل النظري. وقبل ذلك علي أن أبين أن علاقة التمثيل الدلالي غير ملزمة بواقعية ووجود الشيء الممثل في العالم الخارجي، أما أنها تبحث عن (المماثل) فهذا أمر آخر.

٢. ٣ . نظام علاقات التمثيل الدلالي للكلمة المعجمية:

إنّ الكلمة التي نبحث عنها في هذه المرحلة هي وحدة من وحدات نظام الدلالة، وقد تكون في مراحل أخرى عبارة عن ظاهرة تجسد نظام المعنى بعموميته، وإلى أن يتم ذلك علينا أن نفهم أن الكلمة تابعة لنظام تدليل العلامة، في الأقل ضمن التصنيف العلمي المعاصر، وهذا التصنيف قسّم عمل العلامة على ثلاثة أبواب وصفها (أمبرتو إيكو) بالأشكال الرئيسة لظهور العلامة التي يمكن أن ترتبط بعلاقة لغوية[٢٠]، ويمكننا أن نستند إلى هذه العلاقات الدلالية في توضيح نظام التمثيل الدلالي للكلمة، وهي على النحو الآتي:

١- العلاقة الاستلزامية الطبيعية: ومثالها القريب علاقة كلمة دخان بالنار، فإذا سمعنا كلمة دخان، فإن ذلك يستلزم وجود النار، وهذه الكلمة ترتبط بالمعنى بشكل استلزامي، وهي ترتبط جوهرياً بمعنى ذي علاقة استلزامية طبيعية، ويمكننا أن نقول أيضاً أن الدلالات الناتجة عن المعنى العقلي لوجود وإحداث لفظة دخان، هي دلالات ذات طبيعة استلزامية، والواضح للعيان أن المعنى متعلق بأصل نظري مجرد يأتي على أساس العلاقة العقلية الاستلزامية، وهذا ينطبق أيضاً على تعريف كلمة دخان إذا جاءت في أحد المعاجم، فسيكون معناها متمَثَلاً في مفهوم النار، ولو كنا ننظر الى الكلمة وهي جزء من معجم المتكلم العقلي، لكانت كلمة دخان ذات دلالات مفتوحة بين أن تكون دليلاً على نار الشواء أو نار السيجارة، أو نار الحريق، والدلالات الأخيرة لا يمكن قياسها بالمعنى الأول، حيث يمتنع المعجم اللغوي من قبولها ضمن علاقة الاستلزام

٢- علاقة التكافؤ بين الدال والمدلول : في هذا القسم تكون علاقة الاستلزام مستبعدة، والتمثيل الدلالي سيكون مقيد بعلاقة أخرى؛ هي علاقة التكافؤ القائمة على الاعتباطية بين الدال والمدلول، وتتم على وفق المعطى الاجتماعي، وهذا القسم قاصر أيضاً عن بلوغ العلاقات المعجمية التقليدية كتعريف الكلمة بمرادفها أو بما يشاركها أو يناقضها، وعاجزة أيضاً عن استيعاب التصنيفات المعجمية لحقول الدلالة التي تقسم إلى جنس ونوع وخاصة (الإنسان حيوان ناطق)، وهو أيضاً لا يستطيع أن يضم إلى جانبها الدلالات ذات الصفة التكافؤية عند الأصوليين الذين تمسكوا بدلالة المطابقة (الإنسان على مجموع الحيوان الناطق) ودلالة التضمن (الإنسان على مجموع الحيوان الناطق) ودلالة الالتزام (لفظ الانسان على الضاحك)[٢١]، وكل هذه العلاقات هي مبانٍ معجمية غير مصنفة معجمياً، بسبب قصر آلة التمثيل الدلالي المعجمية على جمعها، ولعدم كفاية الدلالات الناتجة عنها.

٣- العلاقة التمثيلية: هذه تعالج كل المساحات القولية الناتجة عقلياً عن القصدية التمثيلية، فأساسها ليس علاقة لفظية مباشرة بين اللفظ والمعنى، أما الكلمة نفسها في هذه العلاقة فهي لا تقف على وحدات الدلالة المعروفة إلا إذا تم تحليلها في ضوء شكل معين من أشكال المضمون، وعلى حد تعبير (أمبرتو إيكو) فإن الكلمة . لكي تتم بها عملية التمثيل الدلالي . ((تشير الى تعليمات سياقية تتحكم في إمكانية إدراجها في أجزاء لغوية أكبر حجماً من العلامة))[٢٢]. وإن ظاهرة التوسع في الكلمة لضمان تمثيلٍ أكبر وعلاقات دلالية أوسع، تركت الباب مفتوحاً للكلمة في أن تخلق نوع السياق المناسب لها في الشرح المعجمي؛ تلبية لأشكال المضمون التي يخطط إليها المعجمي.

إن الحديث عن هذه العلاقات الثلاث، يجعل من المناسب القول إن التمثيل الدلالي هو ظاهرة مشتتة في مظاهرها العامة داخل المعجم، وسبب ذلك يعود الى صعوبة الوصول الى دلالات تنبؤية للكلمات، وأيضاً يمكننا أن نعزو ظاهرة التشتت الدلالي في المعجم الى عدم ارتباط المعجم بنظرية قصدية تستطيع أن تؤسس لعمل دلالي شامل داخل المعجم، والأمر قبل ذلك كله يتعلق بأننا مازلنا ننظر إلى الكلمة على أنها الوحدة المعجمية الكبرى، المستقلة عن الظواهر المعرفية القائمة عليها. الأمر الذي يعني أننا بحسب الطبيعة الاشتقاقية للغة العربية ننظر الى الكلمة على أنها أصل متفرع في جذور، وحينما تطورت هذه القاعدة وأصبحت منهجاً في صناعة المعجم، لم تكشف لنا بوضوح عن مباني النظرية المعجمية التي يمكنها أن تدرس أساليب عمل المعجم وتأليفه. و(الكلمة – الجذر) أصبحت الحقيقة المعرفية الوحيدة التي نمتلكها عن المعجم، وهي اليوم بعيدة كل البعد عن التطورات العلمية الحاصلة في طرق التعامل مع المعجم التي يمكنها أن تلحق الكلمة نفسها في المعجم، وتعيد النظر إليها على أساس قدرة التمثيل التي تعمل عليها هذه الكلمة. بقي أن نقول أن ما استطاع انجازه المعجم العربي يكمن في أنه جعل من الكلمة الوحدة الكبرى . وليس الصغرى . اللازمة لمناسبة ظرف المعنى.

ملاحظات ختامية:

١. إنّ كلمة المعجم لم تعد كلمة مقتصرة على كتاب المعجم الذي نعود إليه في وقت الحاجة إلى معرفة معنى كلمة من الكلمات، فهي اليوم قد تعني المخزون اللغوي العقلي لدى الشخص الذي ينتمي إلى مجتمع لغوي معين، وقد نعني بها أيضاً نظام تكافؤ

الكلمات وترابطها وتجاورها في نص من النصوص. فالمعجم بالنظرة المعاصرة نظام جامع لطريقة التعامل مع الكلمة شفاهياً وكتابياً، وهو من الأنظمة المرنة القابلة لاستقبال أدوات معرفية متعددة لتعزيز طريقة وصف حياة ونمو الكلمة التي يدرسها، بما في ذلك بنيتها وطريقة خزنها ووظائفها الدلالية، وقد أصبح المعجم المعاصر حاضنة لكل العلوم اللغوية، ويمكننا أن نؤسس بناء على هذه الملاحظة الأخيرة مجموعةً جديدة من ظواهر دراسة اللغة قائمةً على نظام التدليل المعجمي، كنظام التدليل المعجمي والصوتي والصرفي والنحوي والاستعاري والاشاري وغيرها، وكل هذه الظواهر المتعلقة بالنظام المعجمي هي في طور النضج في الدرس الغربي لتصبح ربما في مستقبل الأيام علوماً قائمة بذاتها.

٢. لا طريق للاستدلال على الحقيقة العلمية سوى أن تكون هذه الحقيقة لها خطوط واضحة تصل بنا إلى أصل من أصول تفكيرنا، وما تخلف عن هذه القاعدة لا يعدو أن يكون شيئاً خالياً ومفرغاً من كل مضمون علمي، لذلك علينا أن نتنبه على أن التصنيف العلمي يراعي في كل ظاهرة علمية ارتباطها المباشر والدقيق بثلاثة مبانٍ عقلية رئيسة أنتجها العقل الإنساني؛ الأول: أن تكون متأصلة في نظام أصول التفكير الإنساني أو فلسفة المعرفة (Epistemology) والثاني: أن ترتبط معالم تكوينها المنهجية بضوابط وشروط علم المنهج (Methodology) وثالثاً وأخيراً أن تكون ذات أهداف متاحة للتطبيق، وجاهزة لمقارنتها مع الوضع التجريبي العام الذي تضعه وتقرره نظرية المعرفة (Theory of knowledge) ، وهذه الثلاثية الكبرى تأخذ ثلاثة أبعاد متزامنة في بحث أية ظاهرة علمية، البعد الأول يعنى بترتيب وضع الظاهرة العلمية على أن تكون مشتملة على المباني النظرية الثلاثة، والثاني أن تراعي تسلسل الأهمية للمباني فتكون ظاهرة لها وجود حقيقي في المبنى الأول، وبحثها يتم بموجب ما يقرره علم المنهج، وما يظهر من تطبيقاتها يوافق ويساوي ما تظهره وتقرره نظرية المعرفة. أما البعد الثالث وهو الأهم من بين هذه الأبعاد وهو أن يراعى في دراسة الظاهرة أن لا تخفي وراءها مبدأ التفكير الأول والثاني، فمع دخول الظاهرة في حيز المبدأ الثالث (نظرية المعرفة) ستختفي معالم المبدأين السابقين، وستكون نظرية المعرفة أشبه بالجزء الظاهر من جبل الجليد العائم على سطح الماء، ولدينا اليوم مثال تاريخي مهم نضربه لطغيان نظرية المعرفة على الأصلين الآخرين، وهذا المثال يتعلق بنظرية جومسكي التي لا يمكن فهمها فقط من

مباحث التوليد التطبيقية، من دون أن نعود بها الى أصلها المعرفي الأول وهو نظام التمثيل الدلالي وخطوطه المنهجية المترشحة عنها كالقصدية وغيرها من الخطوط العامة التي ذكرناها في البحث.

٣. إن النتيجة الثالثة ستكون حتماً من البديهيات التي تقول: ألاّ فائدة ترجى من دراسة اللغة اليوم ما لم ينهض ويستيقظ النظام العقلي القائم عليها.

وأخيراً إن نصيب من يتعرض الى البحث المعرفي، لا يعدو أن يكون نصيب من ينصح الآخر، وهو غافل عن أخذ النصيحة لنفسه، وحسبي من كل ما تقدم، أن أكون قد وضعت نفسي على باب لا ينجو من اللوم عليه أحد. وما توفيقي إلا بالله نعم المولى ونعم النصير.

الهوامش

[1] المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، نعوم تشومسكي، ترجمة وتحقيق وتقديم د . محمد فتيح ط١ دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٣ ص١٠١.

[2] الأبستمولوجيا مصطلح علمي جديد عرّب منلدن عدد من الباحثين وترجم من لدن آخرين. وقد استخدم بمعنى النظرية النقدية للمعرفة، أما عند الفيلسوف الفرنسي فوكو، فإن مصطلح الأبستمية يعني نظام الفكر ، وترجم أيضاً الى : علم المعرفة في مفاتيح العلوم الإنسانية ، أي العلم المتخصص في درس كيفية تكون المفاهيم وتحولها، وكيفية تبادلها بين علم وعلم، وكيفية تشكل الحقل العلمي، ويعرّف لسانياً: مبحث العلوم أو علم أصول المعارف. ينظر: إلى التواصل غير الكلامي بين الخطاب العربي القديم والنظر الراهن، محمد نادر سراج الفكر العربي المعاصر أيلول ١٩٩٠ ص٩٤ . وجاء في موسوعة wikipedia العالمية عن هذا المصطلح ما ترجمته ((معظم الجدل والنقاش في هذا الفرع الفلسفي يدور حول تحليل طبيعة المعرفة وارتباطها بالتصورات المتماثلة، مثل الحقيقة، والإعتقاد، والتعليل (التبرير). وتدرس الأبستمولوجيا أيضاً وسائل انتاج المعرفة، كما تهتم بالشكوك حول ادعاءات المعرفة المختلفة، وبكلمة أخرى تحاول الابستمولوجيا أن تجيب عن الأسئلة الأولية الآتية : ((ماهي المعرفة؟))، ((وكيف يتم الحصول على المعرفة؟))، ((وما الذي يعرفه الناس)). ينظر: موقع الموسوعة على شبكة المعلومات الدولية ضمن الرابط http://ar.wikipedia.org/wiki/ . وقد أضافت الصفحة العربية من الموسوعة نفسها الى هذا التعريف بعد أن أغفلت السؤال الأخير العبارة الآتية: ومع أن طرائق الإجابة عن هذه الأسئلة يتم باستخدام نظريات مترابطة، فإنه يمكن عملياً فحص كل من هذه النظريات على حدة . ينظر الصفحة العربية من الموقع نفسة مادة epistemology

[3] جاء في بحث نشره الدكتور محمد سالم سعد الله بعنوان ((فلسفة المعرفة الانسانية وأثرها في التغيير العقلاني . فوكو نموذجاً . ، وبالإسناد الى مراجع هذه المادة ما يأتي :تشكل الابستيمات البنية التحتية للمعرفة ، وهي المسؤولة عن تجدد أشكال المعارف ، وهي الشروط القبلية لامكانية ظهور المعارف في مرحلة تاريخية معينة ، فضلاً عن كون الابستيمات بنيات معرفية كبرى لها طابع الضرورة والشمولية ، وتعد شبكة أساسية من القوانين الضرورية التي تنظم المعارف والمناهج والمفاهيم ، وطرق التحليل والتصنيف)) ينظر الى البحث كاملا في موقع رابطة أدباء الشام على الشبكة الدولية للمعلومات.

[4] ينظر موسوعة wikipedia مصدر سابق

[5] قد عرضت مجموعة من المواقع العالمية هذا الكتاب بشكل مفصل مراعاة لأهميته ينظر الرابط الأتي : http://www.sil.org:8090/silebr/2005/silebr2005-004 وفيه عرض مفصل للكتاب بواقع ٥٥٢ صفحة وبثلاثة أجزاء وستة عشر فصلاً ، وكل إشارة سترد في البحث عن هذا الكتاب ، أعتمدت فيها على ملخص هذا الموقع.

[6] ينظر الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، مارسيلو داسكال، ترجمة حميد لحمداني وآخرون، أفريقيا الشرق ١٩٨٧ ص٣٨_٣٩

[7] الملفوظية: جان سيرفوني، ترجمة الدكتور قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨ ص٨٩ .

[8] ينظر المصدر نفسه، ص٨٩ .

[٩] النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق ٢٠٠٠ ص٢٣٥ .

[١٠] ينظر الى ملخص المقال تحت الرابط http://www.fed.cuhk.edu.hk/en/aps/200300350001/0056.htm وهو متضمن على تجربة أجريت على ٩٠ طفلاً بعمر ٣_٥ سنوات، لقياس قدرتهم اللغوية.

[١١] epistemology of language ملخص الفصل السادس من الكتاب ضمن الرابط http://www.sil.org:8090/silebr/2005/silebr2005-004

[١٢] العقل مدخل موجز، تأليف: جون سيرل، ترجمة أ . د . ميشيل حنا متياس، العدد ٣٤٣ أيلول، سلسلة عالم الفكر، الكويت ، ٢٠٠٧ .ص١٤٩

[١٣] ينظر الى رأيهم في epistemology of language ملخص الفصل السادس، مصدر سابق.

[١٤] العقل: ١٥ ، مصدر سابق.

[١٥] نفسه، ص٢٨

[١٦] ملخص كتاب epistemology of language الفصل الخامس، مرجع سابق، وقد ورد مصطلح computational في كتاب جومسكي المعرفة اللغوي، وترجمه د . محمد فتيح بكلمة حوسبي. ينظر الى المعرفة اللغوية ص١٠٧ مصدر سابق.

[١٧] ينظر إلى المصدر السابق.

[١٨] وقد نشرت إحدى هذه الجمعيات بحثاً تحت هذا الرابط http://spot.colorado.edu/~moriarts/reprsntn.html وعنوان هذا البحث الكامل: A philosophical Discussion of Representation وصدر عن International visual literacy association, Cheyenn, 1996 وقد عمدت إلى ترجمته . على قلة إحاطتي باللغة الانكليزية . نظراً لأهميته.

[١٩] يقول سيرل: من الضروري بصورة مطلقة أن نمتلك تصوراً واضحاً للتمييز بين القصدية الجوهرية أو الأصلية الموجودة في رأسي عندما أفكر في شيء ما، والقصدية المشتقة التي تحملها العلامات على الورقة عندما أكتب أفكاري. العقل : ص٢٩ . مصدر سابق.

[٢٠] ينظر الى : السيميائية وفلسفة اللغة. أمبرتو إيكو . ترجمة د . أحمد الصمعي . المنظمة العربية للترجمة ط١ بيروت ٢٠٠٥ ص٤٦ _ ٥٠ .

[٢١] ينظر في تقسيمات الأصوليين لدلالة اللفظ : التعريفات للشريف الجرجاني ، مادة (دلالة). وكذلك المعجم الفلسفي د . عبد المنعم الحفني ، دار ابن زيدون بيروت ١٩٩٢ .

[٢٢] السيميائية وفلسفة اللغة، ص٦١ . مصدر سابق.

المصادر

أولاً: الكتب:

١. ينظر الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، مارسيلو داسكال، ترجمة حميد لحمداني وآخرون، أفريقيا الشرق ١٩٨٧

٢. التعريفات ، الشريف الجرجاني دار الشؤون الثقافية، بغداد

٣. : السيميائية وفلسفة اللغة. أمبرتو إيكو . ترجمة د . أحمد الصمعي . المنظمة العربية للترجمة ط١ بيروت ٢٠٠٥

٤. العقل مدخل موجز، تأليف: جون سيرل، ترجمة أ . د . ميشيل حنا متياس، العدد ٣٤٣ أيلول، سلسلة عالم الفكر، الكويت ، ٢٠٠٧

٥. المعجم الفلسفي د . عبد المنعم الحفني ، دار بن زيدون بيروت ١٩٩٢.

٦. المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، نعوم تشومسكي، ترجمة وتحقيق وتقديم د . محمد فتيح ط١ دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٣.

٧. الملفوظية: جان سيرفوني، ترجمة الدكتور قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨ ص٨٩ .

٨. النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق ٢٠٠٠.

ثانياً: الكتب المنشورة على شبكة المعلومات الدولية:

١. ملخص كتاب "epistemology of language" Alex Barber ضمن الرابط http://www.sil.org:8090/silebr/2005/silebr2005-004

ثالثاً: الدوريات:

١. التواصل غير الكلامي بين الخطاب العربيالقديم والنظر الراهن، محمد نادر سراج، الفكر العربي المعاصر أيلول ١٩٩٠ .

رابعاً: البحوث والمقالات المنشورة على شبكة المعلومات الدولية:

١. فلسفة المعرفة الإنسانية وأثرها في التغيير العقلاني . فوكو انموذجاً . محمد سالم سعد الله ، موقع رابطة أدباء الشام، على الشبكة.

٢. A philosophical Discussion of Representation ضمن الرابط http://spot.colorado.edu/~moriarts/reprsntn.html

٣. Verifying the Cognitive Model of Theory of Mind ضمن الرابط
http://www.fed.cuhk.edu.hk/en/aps/200300350001/0056.htm

خامساً: الموسوعات العلمية العالمية على شبكة المعلومات الدولية:

١. online medical dictionary
٢. websters معجم
٣. wikipedia موسوعة